الفصل الرابع

ملامح عقلانية علمية جديدة

عقلانية ضد المنهج

الفصل الرابع

ملامح عقلانية علمية جديدة

عقلانية ضد المنهج

تقديم...

ترفض الفوضوية كفلسفة اجتماعية، الحكم السلطوي وتؤكد على المؤسسات الحرة، التي تعبر عن الميول الاجتماعية لطبيعة الإنسان.[1] والفوضوية «بالمعنى الاصطلاحي تعني الخلل الذي ينشأ عن فقدان السلطة الموجهة أو عن تقصيرها في القيام بوظائفها، أو عن تعارض الميول والرغبات أو نقص التنظيم، وهي ضد النظام والترتيب.[2] والقوم الفوضى هم المتساوون الذين لا رئيس لهم.»[3] وهذا يعني أن مصطلح الفوضى يعبر عن اللا سلطة وأن الفوضوي هو الإنسان الذي يرفض كل قانون و يرغب في سيادة الفوضى Chaos في العالم.[4]

(1) Woodcock. G. Anarchism. In the Encyclopedia of Philosophy. Vol. 1 & 2 PP. 111 - 112.

(2) د. جميل صليبا: «المعجم الفلسفى» ج2، ص168.

(3) محمد عبد القادر الرازى: «مختار الصحاح» ص215.

(4) WoodCock. G. «Anarchism» In the Encyclopedia of Philosophy. P.111.

ظهر مصطلح الفوضوية كنظرية عن طريق الفيلسوف الفرنسي «بيار جوزف برودون P. G. Proudhon الذي يعرف بأنه أول المنظرين للفوضوية عندما تساءل عن: ما هي الملكية؟ وذلك في عام 1840، وقد وصف برودون نفسه بأنه «فوضوي» لأنه يعتقد أن النظام السياسي المؤسس على السلطة سوف ينهار ويحل محله النظام الاجتماعي والاقتصادي المؤسس على الحكم التعاقدي الحر، وكما يرى أن حكم الإنسان للإنسان استعباد، ومن هنا يعلن أنه لا أحزاب، لا سلطة بل فوضى وحرية مطلقة للفرد.[1] لم تقم «للفوضوية»، كمصطلح سياسي، قائمة إلا مع الحركة الطلابية التي ولدت في بركلي عام 1964 وتوسعت في برلين عام 1966، وبلغت ذروتها في عام 1968، حيث راح عَلم الفوضوية الأسود في مايو 1968، فيما يقول هنرى أرفون، يرفرف على باريس ويضغط على المظاهرة الكبرى في مايو 1968 لما ينادي به من نظام سياسي واجتماعي مثالي يفترض أن يكون الفرد متحررًا من كل وصاية حكومية.[2]

و«الفوضوية» كظاهرة تاريخية تعود إلى القرن التاسع عشر، حيث تمتد جذورها إلى الثورة الفرنسية والحرب الأهلية الإنجليزية، فقد سجلت الثورة الفرنسية انتصارًا هائلًا للمذهب التحرري، وأعلنت أن الفرد غاية في ذاته وأن جميع الأطر الاجتماعية والسياسية إنما وضعت لتخدم حريته... كما دعت أيضًا أن الإنسان خير بطبعه وذكى ومتآخ ومحب للعمل، فليترك لشأنه لأن كل الشرور مصدرها القهر، وهذا ما جعل «وودكوك» يذهب في

(1) Ibid. P. 112.

(2) هنرى أرفون: الفوضوية. ترجمة: هنرى زغيب. منشورات عويدات، بيروت - باريس. ط1، 1983، ص6.

كتابه «الفوضوية: تاريخ الحركات والأفـكار الليبرالية» إلى أن الفوضوية مـن الناحية التاريخية هي المذهب الذي يتخذ النقد وسـيلة له لنقد المجتمع القائم، والرغبة في مجتمع مسـتقبلي تسوده الحرية، فهدفها الأساسي هو دائمًا التغير الاجتماعي.[1]

وللـ «الفوضوية» منظرون، أسهموا بنصيب كبير في تأصيل هذا المصطلح ليصبح بعد ذلك فلسـفة اجتماعية لها أسسـها الفلسـفية، مـن أمثال هؤلاء: وليم جودوين W. Godwin (1756 - 1836) الفيلسـوف السـياسي والروائي الذي انطلق من مقولة أن الإنسـان كائن موهوب منطقًا، ويبحث عن حالة اجتماعية لا يُمارس عليه أي ضغط من الخارج أو من الداخل، لهذا شن «وليم جودويـن» حربًا على القـوة الخارجية التي تضطهد الفـرد متمثلة في الدولة، وعلى القوة الداخلية المتمثلة في الغرائز التي تفسد صفاء العقل. ويمثل ميشيل باكونين Bakounne (1814 - 1976) الفيلسوف الروسي الفوضوية الملحدة، فهو يعلن نفسـه عدوًا شـخصيًا للإله، فهو لا ينكر أن الدين أخرج الإنسان مـن حيوانيته، ولكن، كما كان ضروريًا أن يخرج الإنسـان من الاسـتعباد الحيوانى، كان من الضروري أيضًا للإنسان أن يتخلص من الاستعباد الإلهي، ومـن هنا نـادى باكونين بالحريـة المطلقة. فعن طريق هـذه الحرية يتم نبذ الدولة، وكل أشـكال الحكم.[2] ويعتبر ماكس شتيرنر Max Stirner (1806 - 1856) الفيلسـوف الألماني من أشـهر من اقترن اسمهم بمصطلح الفوضوية وخاصـة «الفوضويـة الفردية» حيث يمجد ماكس شـتيرنر التفرد والوحدة

(1) WoodCock. G. «Anarchism: A History of Liberian ideas and movements» The world publishing Co. U.S.A. 1962. P.7.

(2) هنرى أرفون «الفوضوية» ص60،27.

التي لا تمحوها أية قوانين، فقد حارب شتيرنر ضد الاستلابات جميعها، حيث تمثل الدولة أكبر هذه الاستلابات. فليس للدولة سوى هدف واحد هو الحد من طاقة الفرد وترويضه وإزلاله وإخضاعه لما هو عام، إلا أن الدولة لا يمكنها الاستمرار ما لم يكن الفرد هو الكل.[1]

ولكن ماذا عن الأسس الفلسفية لـ «الفوضوية» كفلسفة اجتماعية: يذهب هنري أرفون إلى أن الأسس الفلسفية للفوضوية، رغم غموضها تبدو معقولة من خلال دراسة كبرى التيارات الأيديولوجية وهي العقلانية الفردية والمثالية المطلقة الألمانية وأيضًا المسيحية. [2]

أما بالنسبة «للعقلانية الفردية» فهي تؤمن بأن الإنسان، على خلاف سائر الكائنات يتمتع بالعقل، وبالتالي يملك موقفه الاجتماعي، كما يمتلك الحقوق التي لا يحق لأي إنسان أن يتصرف فيها، وهذه الحقوق قبلية، تسبق كل تنظيم سياسي. إلا أن الإنسان يشعر بشعورين متناقضين يعبر عنهما غرزتين، الأولى، هي الغريزة الاجتماعية التي تكشف له أن سعادته تتحقق في السعادة العامة أي في الغيرية، والثانية، هي غريزة البقاء، أعني «الأنانية»، ومن خلال تطور الإنسانية تقدمت الأنانية على الغيرية، فصار الإنسان ذئبًا لأخيه الإنسان، وخلقت الدولة لإخضاع الأفراد على احترام الحرية الفردية التي تهددها الأنانية وفق «عقد اجتماعي» حيث يرى روسو، أن البشر اجتمعوا على شكل تعايش يحمى الفرد من القوة المشتركة، ويحمى ممتلكات المتعايش، وفى هذا الشكل يلتحم الفرد بالجماعة دون الانصياع لها، بل

(1) المرجع السابق ص36.
(2) المرجع السابق ص17.

لنفسه ويبقى على حريته السابقة، ومن هنا كانت العقلانية الفردية رغمًا عنها تحمل الفوضوية في ثناياها.

أما بالنسبة للمثالية الألمانية المطلقة فإنها ترتكز على أن الواقع الموضوعي ليس سوى اختراع العقل. فالشخص والموضوع اللذان يبدوان منفصلين، يتحدان في هذه الوحدة العميقة وهي العقل «أي عقل الإنسان» أو عقل الأنا، عندما يعي ذاته، وهذا ليس بغريب على الفوضوية التي تبشر بسلطان الأنا الوحيدة، وتحرض على الثورة ضد كل الاستلابات الطاغية على الأنا. ومن هنا كانت صلة القرابة القوية بين المثالية الألمانية المطلقة التي نجدها عند هيجل والفوضوية.

وإذا كانت الفوضوية تحارب الدين لضغطه على الفرد وهو شبيه بذلك بالدولة، فإنها لها جذورها في المسيحية، حيث تتذكر الفوضوية، قول المسيح «أعيدوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»، هذه العبارة منطلق الفرق بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية، حيث يفسرها الفوضويون بالمعنى المضاد للدولة. فالمسيح يبعد الدولة ليشدد على القيمة المطلقة المتعلقة بالكائن البشري. والفرد والدولة لا يمتزجان، ويعتبرهما عالمين منفصلين. فالمسيح، وهو الذي خصص جهوده للدفاع عن الكون الفردي، أبعد الدولة في المعنى الجوهري لرسالته.[1]

ويمكن أن نخلص إلى القول بأن «الفوضوية» بشكل عام، تنبذ أشكال الحكومات الاجتماعية الموجودة، والدولة، وترفض النظام الديمقراطي المؤسس على مبدأ الأغلبية، وتنادي بسيادة الفردية، وتقف «الفوضوية»

(1) المرجع السابق ص17 - 23.

موقف الناقد للفلسفات اليوتوبية لأنها تهدف إلى وضع نماذج جامدة للمجتمع. الأمر الذي جعل الفوضوية تنادي بإلغاء رقابة الدولة على الأفراد، وإلى بناء العلاقات الإنسانية على أساس الحرية الفردية، وتبشر بسلطان «الأنا» الوحيدة، وتحرض على الثورة ضد جميع الاستلابات الطاغية على الأنا. فالدفاع عن الاستقلالية الفردية هو الذي يشكل جوهر «الفوضوية» بالمعنى السياسي والاجتماعي والأخلاقي.

وقد امتد مصطلح «الفوضوية» لفلسفة الجمال، وأصبح هناك ما يسمى بـ «الجمالية الفوضوية» التي اتجهت في منحى مضاد للكلاسيكيات الجمالية، وقد استوحت هذه الجمالية الفوضوية المبادئ البرودونية (نسبة للفيلسوف الفرنسي برودون) والباكونينية (نسبة لميشيل باكونين) لتخرج فنًا جديدًا لا شبيه له في تاريخ الفن، وإذ تدعو إلى نهضة جديدة لفن شعبي أو قديم، إنما هي توجه أول ضربة معاصرة لألفي سنة من الثقافة الأوروبية.[1]

وتعد «الدادية» من أبرز المدارس الفنية التي اتخذت على عاتقها نشر الجمالية الفوضوية بين الأوساط الفنية والأدبية. فهي بمثابة نزعة عالمية حاولت أن تهز كل الممارسات التقليدية في الفن، وتتحدى القيم السائدة لتخلق طرازًا جديدًا في الفن ذاته. فقد احتضن الداديون قول باكونين «أن الهدم هو أيضًا إبداع»، ومن هنا جاءت الصلة الوثيقة بين الفوضوية والدادية: فكلاهما يعبر عن نفس الأفكار التحررية، ولكن الفوضوية في مجال السياسة، والدادية في مجال الفن.

(1) أندريه ريستسلر: الجمالية الفوضوية. ترجمة: هنرى زغيب، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط1، 1982، ص6 - 7.

وتمثـل «الدادية» حركـة راديكالية وثورة ثقافية. فهـي الإجابة المتقززة للفنانين على محنة الحضارة الغربية وقيمها في الحرب العالمية الأولى. وتمثل أيضًا ثورة ضد الفن من جانب الفنانين أنفسـهم الذيـن أثارت جزعهم التطورات في المجتمـع المعاصر. وهي إذ تفضـح قوانين الفعل والـذوق وقوانين النظام في المجتمـع والإلهـام الذي سـيطر عليه العقـل في التعبير الخيـالي، قد لجأت الدادية إلى الفوضوية وإلى الصدفة وإلى العالم الخارج والعام، وعالم العقل الباطن الداخلي والخاص. ويعد «تريسـيان تازارا Tristan Tzara الشـاعر والروائي الرومـاني الأصل والذي يعد من أكثر شـخصيات القرن العشرين شيوعًا وتنوعًا فنيًا، هو المؤسس لحركة الدادية الفنية في مدينة زيورخ خلال الحـرب العالمية الأولى، وقد عبر تـازارا عن أحد مبـادئ الدادية بقوله: «إن العلم يثير تقززي عندما يتحول إلى نظام بحثي ويفقد هويته الشمولية. إنني أبغـض الموضوعية اللزجة والانسـجام، وأبغض أيضا العلـم الذي يعتبر كل شيء موضوعًـا لـه، وأنا أيضًا ضد الأنظمة، والنظام الأكثر قبولًا بالنسـبة لي هو الذي لا يحوي أيًا من المبادئ.»[1]

ومـن أبرز خصائص الدادية أو الجماليـة الفوضوية، أنها تؤكد على حق كل إنســان في الخلـق والإبداع، فالفـن تجربة متاحة لكل إنسـان، ومن هنا تلغي الجمالية الفوضوية ما يسـمى بالفنان الكبير، والفنان الوحيد، والمبدع العبقري. إن الجمالية الفوضوية تناضل من أجل «فن ملائم» عفوي ناتج من مـكان وزمان، ما يهم هو فعل الخلق والإبداع لا الأثر نفسـه... إن الجمالية

(1) تازارا. ترسيان: بيانات الدادية السبعة، ترجمة: ظبية خميس. مجلة القاهرة. عدد يناير 1993، ص56 - 70.

الفوضو يـة تحاول هـدم كل ما يفصـل الفن عـن الحياة... وتؤكـد الجمالية الفوضو يـة عـلى ضرورة تحـرر الفن مـن أي سـلطة. فعلى الفنـان أن يعمل دائمًا عـلى التنقيب والتحقق والتحليل والانعكاف عـلى الذات، والعمل على الخلق الشـخصي والحر، دون الرضوخ أو الانصياع لأية سلطة أيًا كانت.[1] والسؤال الآن: ما علاقة «الفوضو ية بفلسفة العلم؟

يـرى البعـض أن «الفوضو ية» هي الثـورة الثالثة في علـم الفيزياء، بعد النسـبية وميكانيكا الكوانتم. فإذا كانت النسبية قد استبعدت فكرة الزمان والمكان المطلقين التي كانت تقوم عليهما الفيزياء الكلاسيكية، واستبعدت ميكانيكا الكوانتم عمليـات القياس المحكوم بقواعد وأطر محددة بطريقة مسـبقة، فـإن الفوضو ية قد اسـتبعدت وهم التنبـؤ المحدد. فعلـم الفيزياء المعاصر قد أثبت أنه يعمل في مجال أساسه عدم الانتظار والفوضى، وأن هذه الفـوضى في الفيزياء المعاصرة هي التي تطرح أكثر المشـكلات إثارة وجدة، وهـي نفسـها التي تنفـي وتدمر المبـادئ الثابتة التـي تقوم عليهـا العقلانية الكلاسـيكية التي تسـتند على المنهج العلمي بأطره الثابتة والجامدة. ويقول «جامز جليسـك» أننا أمام علم جديد يسـمى بــ «الفوضو ية» أو بالأحرى أمام وسـائل تمكننا مـن أن نفهم بطر يقـة أفضل، وفى إطـار مختلف العلوم، الظواهـر التي هي من التعقيد بالقدر الـذي جعلنا نصفها بالفوضى، ومما هو جدير بالذكر أن هذه الوسـائل الجديدة غيرت نظر ياتنا العلمية.[2]. ويرى «أ/ كيتا يجوردودسكى» في كتابه «النظام والفوضى في عالم الذرات» أن كل

(1) أندريه ريتسلر: «الجمالية الفوضوية»، ص10.

(2) جامز جليسك: الفوضى: صناعة علم جديد. عرض وتحليل، محمد عامر، عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الأول، إبريل، مايو، يونيو، 1989، ص275، 288.

شيء في الطبيعة ينزع إلى الفوضى. فالنزوع إلى الفوضى في ترتيب الجزيئات، يفسر لنا الكثير من الظواهر، والآن ما الذي يجعل جزيئات قطعة السكر الموضوعة في قدح من الشاي تتحرك إلى أعلى، مع العلم بأن جزيئات السكر أثقل من جزيئات الماء وتختلط بانتظام مع الماء؟ إنها محاولة النزوع إلى الفوضى. وما الذي يجعل ذرات الزنك تتوغل في النحاس، عندما تلصق صفيحتا المعدنين المذكورين مع بعضهما البعض؟ إنها محاولة النزوع إلى الفوضى أيضًا.[1] لا شك أن توزيع الجزيئات في الغازات يعتبر مثالاً واضحًا على الفوضى المطلقة التامة الموجودة في الطبيعة، فيما يتعلق بالترتيب المتبادل والحركة المتبادلة للجسيمات الدقيقة للمادة، فحركة الجزيئات هي حركة فوضوية تمامًا، فكل جزئ من جزيئات الغاز يكون في حالة حركة مستمرة على الدوام، وأن الذي يجعل الحركة الفوضوية للجزيئات الغازية يبدو بوضوح هو أن نفس العدد المتساوي من الجزيئات يتحرك في كافة الاتجاهات.[2] وهذا يظهر بوضوح في «الحركة البراونية» التي كانت بمثابة أول تحول في الفيزياء الكلاسيكية التي تعتقد أن الجسيم لا يتحرك ما لم يؤثر عليه مؤثر خارجي، إلى الفيزياء المعاصرة التي لا تؤمن البتة بالثبات. فكل شيء في حالة حركة مستمرة، في حالة «فوضى»، وهذا ما أدى بـ «جورج جاموف» إلى أن يطلق على هذه الحركة قانون الفوضى، يقول «إنه لخطأ كبير أن نعتقد أن الحركة البراونية لابد أن تظل خارج نطاق أي توظيف طبيعي، وذلك بسبب عدم انتظامها، والواقع أن هذه الحقيقة بعينها، وهي عدم انتظام الحركة

---

(1) أ. كيتايجورودسكى: النظام والفوضى في عالم الذرات، ترجمة د. داود سليمان المنير: دار مير للطباعة والنشر، الاتحاد السوفيتى، موسكو 1983، ص236.

(2) المرجع السابق: ص20.

البراونيــة لابــد أن تظل خارج نطاق أي توظيف طبيعي، وذلك بســبب عدم انتظامهــا، والواقع أن هذه الحقيقة بعينها، وهي عدم انتظام الحركة البراونية أن يجعلهــا خاضعة لنوع جديــد من القوانين وهو قانــون «الفوضى.»[1] ولا شــك أن الحركة الحرارية تتصل بالحركة البراونية. فالحركة الحرارية التي لا يمكن بدونها أن يوجد أي شــكل من أشــكال المادة، تظهر في صورة ذبذبات مســتمرة للذرات والأيونات والجزيئات، حيث تتجه نحو الفوضى في ترتيب الجزيئــات وإلى الفــوضى في اتجاه سرعتها.[2] وهذا ما أكــد عليه فايرآبند في دراســته عن الحركة البراونية، حيــث يؤكد أن الحركــة البراونية للجزيئات إنما تقوض القانــون الثاني للديناميكا الحرارية الذي يقول ببقاء الكتلة ثابتة خلال كل التغيرات التي تحدث في حركة أي جسم وفى أي اتجاه في المكان.[3] ولهذا توصف عقلانية فايرآبند بأنها محاولة لتشييد الفوضوية الإبستمولوجية أو تشييد عقلانية علمية فوضوية.

الإبستمولوجيا الفوضوية... تحرير العلم من القيود المنهجية

ليســت النظريــة الفوضويــة في المعرفة التي يقــول بها فايرآبنــد، هي التي مورســت في الماضي، والتي تتبع نوعًا من الاســتدلال المتزمت، بل هي أقرب إلى اتجــاه الداديــة في الفن والأدب، حيث يصف فايرآبند، نفســه بأنه دادي بنفس المعنى الســابق. فإذا كان مصطلح الدادية يدعو للتحرر من القيود التقليدية في

(1) جورج جاموف: بداية بلا نهاية. ترجمة: محمد زاهر، الهيئة المصرية العامة للكتاب الألف كتاب الثاني: 1990 ص179.

(2) انظر أ. كيتايجورودسكى: النظام والفوضى، ص235.

(3) Feyerabend, P. «Realism, Rationalism» PP. 143 - 145.

الفن والأدب، ويدعو إلى حرية الشكل، فإن عقلانية فايرآبند دعوة أيضًا لنبذ كل القيود التقليدية والمناهج الثابتة في العلم التي تعرقل مسيرة التقدم العلمي.

يقول فايرآبند موضحًا الأسباب التي أدت به إلى اختيار مصطلح الفوضوية كتعبير عن تصوره الجديد عن المعرفة ومن ثم عن العقلانية العلمية الجديدة: «لقد اتبعت استخدام عام وبسيط عند اختيار مصطلح «الفوضوية» لمشروعي، ومع ذلك فإنني لا أعتزم افتراض الفوضوية كما تم ممارستها في الماضي، أو كما تمارس اليوم، ذلك لأنها قليلة الاهتمام بالحياة والسعادة الإنسانية. كما أنها تتضمن نوعًا من الاستدلال المتزمت والصارم والذي أبغضه. ولهذه الأسباب فإنني أفضل استخدام مصطلح «الدادية Dadaism ذلك لأن الشخص الدادي يترك الكائن البشري لشأنه ولا يتأثر بأي مشروع جامد. والدادي هو الذي يدعو إلى الحياة الجديرة بالاهتمام، والتي ستظهر عندما نبدأ في أخذ الأشياء بعدم اكتراث، وعندما ننتقل من أحاديثنا صعبة الفهم والمعاني الفاسدة التي تراكمت عبر القرون، كالبحث عن الصدق والدفاع عن التبرير. إنني أتمنى من الذي يقرأ هذا المؤلف (ضد المنهج) أن يتذكرني على أنني دادي، لا على أنني فوضوي متعصب.»[1]

إن الطرافة والجدة في عقلانية فايرآبند العلمية تكمن في نقل مصطلح «الفوضوية» من فلسفة السياسة إلى فلسفة العلم والإبستمولوجيا، والسبب في ذلك فيما يقول «أن تاريخ العلم غني بمضمون متغير ومتعدد الجوانب يمكن للميثودولوجي الجيد أن يتصوره، وهو أن تاريخ العلم ملئ بالأحداث والفرضيات الحدسية والتجاوزات الغريبة للأحداث، وهو يوضح لنا التغير

(1) Feyerabend P. Against Method. 1984, P.21

الإنساني المعقد والسمة اللا تنبؤية للنتائج النهائية لأي سلوك معطى أو قرار إنساني.[1] يريد فايرآبند أن يقول بأن تاريخ العلم غني بمضمون «الفوضى»، ولهذا كان هذا المصطلح يعني عند فايرآبند محاولة لزيادة التحرر من كل القيود، سواء كانت هذه القيود علمية أم اجتماعية أم سياسية، والوصول إلى حياة كاملة وذات قيمة، ومحاولة اكتشاف أسرار الطبيعة. وهذا يتوقف على نبذ كل المعايير الكلية والاتجاهات الصارمة وقوانين المنهج العلمي بما فيها قوانين العقل ذاته والقول بالفوضوية. يقول فايرآبند: «إن الفوضويين المحترفين يقفون ضد أي نوع من التقيد ويطالبون بأن تتاح للفرد الفرصة لكي يتطور بحرية وألا يعرقله أية قوانين أو واجبات أو تعهدات، وهم بذلك يستوعبون، دون أن يرتبطوا، بكل المعايير المختلفة التي يفرضها العلماء والمناطقة على البحث وعلى أي نوع من النشاط المعرفي الخلاق والمتغير. ولهذا لم يكن هناك حاجة للخوف من الانتقاص من أهمية القانون والنظام في العلم وفى المجتمع، فهذا ما يميز الفوضوية عند فايرآبند. ومن ثم كانت الفوضوية التي ينادي بها مختلفة تمامًا عن الـ «الكايوس» Chaos «أي الفوضى والعماء». فالفوضوية عند فايرآبند فوضوية منظمة إذا جاز لنا هذا التعبير، فهي تبغي الحرية وعدم التقيد بأي قواعد وقوانين ثابتة ومحددة سلفًا. ويقارن فايرآبند بين الفوضوية السياسية والدينية والفوضوية الإبستمولوجية. حيث يرى أن الفوضوية السياسية تقف ضد النظام الثابت في الدولة ومؤسساتها وأيدلوجياتها التي تعمل على تمجيد تلك المؤسسات. تعمل الفوضوية السياسية على تقويض النظام السياسي الثابت من أجل حرية الإنسان. أما الفوضوية الدينية، فهي لا تنكر القوانين

(1) Ibid, P 20.

الاجتماعية فحسب، بل تنكر أيضًا القوانين الأخلاقية والفيزيقية، ومن هنا يرى فايرآبند أن هناك خطًا واحدًا يجمع الفوضويين سواء السياسيين أو الدينيين، أعني «العنف»، حيث يلعب العنف دورًا مهمًّا في كل صور الفوضوية، وذلك لأنه ضروري لتجاوز العوائق التي يضعها المجتمع القائم على النظام الثابت والدقيق.

ورغم إيمان فايرآبند ببعض خصائص الفوضوية السياسية، إلا أنه يذكر بأن أحد خصائص الفوضوية السياسية هو إيمانها بالعقل الطبيعي من جهة وبالعلم من جهة أخرى. فالمرء، وفقًا للفوضوية السياسية، يدرك أن العقل والعلم هما سبب سعادته، وذلك لاعتقاده أن العلم والعقل يعطيان المضمون الحقيقي للإنسان والعالم، ويقدمان الأسلحة الأيديولوجية القوية في الحرب ضد الأنظمة الخادعة، إلا أنه في هذه الأيام قد تعرض هذا الإيمان أو الاعتقاد الطفولي والساذج لدور العلم والعقل إلى الانهيار، وذلك عن طريق تطورين أساسيين: التطور الأول: في نشأة أنواع جديدة من المؤسسات العلمية والتي وقفت ضد أسلافها السابقين. فعلم القرن العشرين المتأخر قد تخلى عن كل الدعاوى الفلسفية الجامدة والثابتة، وأصبحت الاعتبارات الإنسانية هي التي تشكل عقلية أصحابه وليس المصالح الأيديولوجية والسياسية. أما التطور الثاني: كان ضد السلطة المزعومة التي تسعى لتقديم مشروع علمي غير قابل للتغيير. فقد كان يُعتقد في القوانين العلمية لأول وهلة على أنها ثابتة ويتعذر تغييرها. فالعالم يكشف الحقائق والقوانين، ويعمل على زيادة مضمونها الثابت بحيث لا يأتيها الشك، إلا أننا اليوم قد أدركنا خطأ هذا الاعتقاد وخاصة نتيجة أعمال جون ستيورات مل، وإرنست ماخ، وبولتزمان ودوهيم وآخرين. وأن العلم لا يستطيع أن يعطي ضمانات.

فالقوانين العلمية يمكن مراجعتها، وغالبًا ما تتحول وتصبح خاطئة وغير صحيحة، وأن العلم أصبح فوضويًا.[1]

أما الفوضوية الإبستمولوجية فهي تختلف عن الفوضوية السياسية. فبينما الفوضوية السياسية تسعى إلى تحسين صورة محددة للحياة، نجد الفوضوية الإبستمولوجية ربما تدافع عن تلك الصورة ولكن ليس لمصلحة أي مؤسسة أو أي أيديولوجيا. إن الفوضوية الإبستمولوجية مثل الدادية ليس لديها برنامج واحد تعمل من خلاله، بل هي ضد كل البرامج. ويرى فايرآبند، أن الفوضوي الإبستمولوجي مثل الدادى في أنه لا يرفض العقل رفضًا قاطعًا ونهائيًا، بل هو يستخدم العقل بجانب العاطفة. إن اهتماماته متعددة، حيث يهتم بكل الوسائل التي اخترعها الإنسان، وأن سلواه المفضلة هي العمل على إفساد الأنظمة والقوانين والمناهج الثابتة التي وضعها أصحاب العقلانية الكلاسيكية. يجب أن تحل الفوضوية الإبستمولوجية محل العقلانية الكلاسيكية في نظرية المعرفة، حيث أن التقدم العقلي من وجهة نظر فايرآبند، لا يأتي إلا عبر التشديد على أهمية الخلق والقدرات الإبداعية للعالم، ووضع رغباته في الحسبان أكثر من الاهتمام بالمنهج وسلطة العلم، أي مزيد من التحرر من القيود والتقاليد.

لقد تطلع فايرآبند لتدمير العقل، كما عبرت عنه العقلانية الغربية الحديثة، وأضفت عليه صفة الثبات والكلية، ورأى أن المبدأ الوحيد القادر على تقدم العلم هو أن كل شيء جائز Anything goes في مجال العلم، هذا المبدأ الذي يعد حجر الزاوية في عقلانية فايرآبند العلمية والأساس الذي تستند عليه

(1) Ibid, P.190.

الفوضوية الإبستمولوجية لديه، جعله يرى أنه ليس ثمة قانون للبحث أو التأكيد أو لتفضيل نظرية على أخرى، أو قانون علمي على آخر. بل أفضل قانون، إذا جاز لنا أن نستخدم كلمة قانون، هو الفوضوية الإبستمولوجية التي هي بالفعل أفضل إنتاج مناسب للعلم. فهي على الأقل تعد ترياقًا مفيدًا ضد النزعة المنهجية، وهكذا نجد أن هذه المقدمة تفضي منطقيًا إلى الحديث عن مفهوم المنهج العلمي عند فايرآبند.

بول فايرآبند فيلسوف ضد المنهج

تذهب العقلانية العلمية الكلاسيكية إلى القول بأن «العلم في جوهره ليس شيئًا غير البحث المنهجي عن المعرفة، وصفة «المنهجية» تميزه عن ضروب المعرفة الأخرى التي تفتقر إلى التنظيم، ويمكن القول أن المنهج هو العنصر الثابت والباقي في كل معرفة تريد أن تكون علمًا، على حين أن نتائج هذه المعرفة أو مضمونها ونظرياتها في تغير يلازم التطور الحاصل في العلوم، المنهجية، هي الصفة الأساسية في العلم، حتى أنه يعرف عن طريق منهجه، فالعلم، في الأساس معرفة منهجية، وبذلك يتميز عن أنواع المعرفة الأخرى التي تفتقر إلى هذه الصفة. يقول جون كيمنى: «إن المنهج العلمي هو أكثر ما يميز العلم عن غيره.»[1] كما أن تقدم العلم والبحث العلمي رهين بالمنهج ويدور معه وجودًا وعدمًا، دقة وتخلخلًا خصبًا وعقمًا صدقًا وبطلانًا، وأن انتكاسة العلم راجعة إلى النقص في تطبيق المنهج العلمي.[2] والسؤال الآن ما هو «المنهج العلمي من وجهة نظر العقلانية العلمية الكلاسيكية؟

---

(1) جون كيمنى «الفيلسوف والعلم»، ص133.

(2) عبد الرحمن بدوي. مناهج البحث العلمي. دار النهضة العربية. القاهرة 1968 - ص1.

أحد تعريفات المنهج العلمي إنه هو «الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة.[1] ويطلق المنهج العلمي على مجموعة الأساليب الذهنية والحسية الموصلة إلى الحقيقة، أو الصالحة للبرهنة عليها، وهي تختلف باختلاف موضوع العلم، فإذا كان الموضوع مجردًا كما في الرياضيات كان المنهج أو الطريقة استنتاجية وعقلية، وإذا كان محسوسًا كما في العلوم الطبيعية كان المنهج أو الطريقة استقرائية وتجريبية.[2] لذا جرى العرف على حصر المنهج العلمي في فرعين:

- ❑ **المنهج الاستنباطي**: الذي نسير فيه من فرضيات أولية إلى نتائج تلزم عن هذه الفرضيات بالضرورة، مستندين على قواعد المنطق الصوري، دون الالتجاء إلى التجربة، وهو منهج العلوم الصورية كالمنطق والرياضيات.
- ❑ **المنهج الاستقرائي**: الذي نسير فيه من أمثلة جزئية تجريبية غير يقينية وغير ضرورية إلى قضية عامة تفسر تلك الأمثلة الجزئية التجريبية، والاستقراء هو منهج البحث في العلوم التجريبية ومنهج كشف القوانين العلمية.

وقد استطاع العلم الحديث بفضل عقلانيته العلمية الكلاسيكية، أن يجعل لنفسه منهجًا ثابتًا أصبح غالبًا على الدراسة العلمية في ميادين العلم

(1) المصدر السابق. ص5.

(2) جميل صليبا. المعجم الفلسفي. جـ2، ص21.

التجريبي الذي يهمنا هنا في هذا المقام، هذا المنهج كان له مهمة أساسية هي ربط الحقائق المشاهدة بعضها ببعض بحيث يمكننا التنبؤ بوقوع بعضها إذا وقع بعضها الآخر، فما يميز العلم، إذن، هو اتباعه للمنهج العلمي في تفسيره للظواهر الأخرى التي تقع في الخبرة، ذلك الربط الذي يجعلها جزءًا من مجموعة واحدة مطردة الحدوث.[1]

إن ربط الحقائق المشاهدة يتم عن طريق مجموعة من القواعد الثابتة التي لا يمكن أن يحيد عنها العالم، والتي تعرف بالقواعد الاستقرائية أو خطوات المنهج الاستقرائي وهي:

أولًا: الملاحظة: والتي تعد بداية البحث العلمي، فالملاحظة العلمية تعتمد على الحواس التي تعد بمثابة الأدوات المباشرة للملاحظة، أو الأجهزة لمتابعة الظاهرة وتسجيل نتائج هذه المتابعة بدقة، وقد تكون الملاحظة مخططة، أي عن طريق تصميم ظروف وشروط معينة تكشف لنا عن خواص الظاهرة وتجلياتها وهذا ما نطلق عليه «التجربة العلمية».

ثانيا: الفرضية العلمية: في هذه المرحلة من مراحل المنهج الاستقرائي يقدم العالم فرضية لتفسير الظاهرة موضوع الدراسة بحيث يبني هذه الفرضية على ما تم جمعه وتدوينه من الملاحظات ونتائج التجارب التي أجريت لتحديد خصائص الظاهرة وعلاقاتها بالظواهر الأخرى.

ثالثًا: اختبار الفرضيات: فحين يكون لدينا فرضية علمية أولى لتفسير ظاهرة معينة يجب أن يخضع العالم هذه الفرضية للاختبار الدقيق، وذلك

(1) محمد مهران، د. حسن عبد الحميد: في فلسفة العلوم ومناهج البحث. مكتبة سعيد رأفت، جامعة عين شمس، 1978، ص178.

بإجراء العديد من التجارب الدقيقة يتحدد على ضوئها مصير الفرضية التي قدمت في المرحلة السابقة.

رابعًا: النظريات: ومع كثرة وتنوع الظروف التي يتم فيها اختبار الفرضيات التي تدل على أن الفرضية إذا خرجت سالمة منها تتحول إلى نظرية علمية نستطيع أن نستخدمها في تفسير ظواهر عديدة أو خصائص متنوعة لنفس الظاهرة، كما نستطيع أن نتنبأ بسلوك الظاهرة في المستقبل. فالنظريات والقوانين هي الهدف الأسمى من البحث العلمي عند الاستقرائيين، والتقدم العلمي، وفق هذا التفسير، مرهون بكم القوانين والنظريات التي تم إثباتها عن طريق التطبيق الصارم لأسس المنهج الاستقرائي، ولكن ما موقف العقلانية العلمية المعاصرة من الأسس الصارمة للمنهج الاستقرائي؟

لا أحد يستطيع من فلاسفة العلم المعاصرين المعبرين عن العقلانية المعاصرة أن يتجاهل ولو بعض نقائص المنهج الاستقرائي وما أثاره من مشكلة الاستقراء، التي أطلق عليها «وايتهيد» يأس الفلسفة، أو كما أطلق عليها «برود» فضيحة الفلسفة، تلك المشكلة التي تتعلق بالأسس التي تبرر لنا الوصول إلى قانون عام، أي التعميم. حيث أن الاستقراء استدلال تأتى نتيجته أكبر من المقدمات التي ينطوي عليها، وهنا تكمن «المشكلة». فمقدمات الاستقراء لا تشير إلا إلى وقائع كانت موضوع خبرة فعلية، فضلًا عن أن ما لاحظناه هو أجزاء قليلة نسبيًا عما نعمم عليه الحكم. ومن هنا جاء السؤال ما الذي يبرر لنا الاعتقاد بأن المستقبل سوف يكون على غرار الماضي والحاضر؟ هل هذا الاعتقاد مشروع؟ وهل مجرد أن أجزاء تتصف بصفة معينة تعطينا الحق في أن نحكم بنفس الصفة على جميع الأجزاء المشابهة؟ هنا

تكمن مشكلة الاستقراء التي حاول المناطقة وفلاسفة العلم حلها ليجدوا أساسًا يستند عليه الاستقراء. فقد وضعت العقلانية العلمية المعاصرة اليد على الصعوبات العميقة التي يثيرها الاستقراء كمنهج للعلوم التجريبية، وصلب العقلانية العلمية الكلاسيكية، وترى أن الثقة قد سحبت من الاستقراء إلى الأبد، فهو لا يصلح إطلاقًا أن يكون مبدأ للعلم، وألحت على ضرورة البحث عن مبدأ جديد، ويعد كارل بوبر، من أكثر فلاسفة العلم المعاصرين، وأحد المعبرين عن العقلانية العلمية المعاصرة، هجومًا على الاستقراء والبحث عن مبدأ جديد، لهذا لو أردنا وصف فلسفة بوبر، أو بالأحرى عقلانيته بكلمة واحدة لكانت فلسفة عقلانية ضد الاستقراء. فقد كان الأمل الذي تهفو إليه نفس بوبر كبديل للاستقراء هو، المنهج التكذيبي، أو العقلانية النقدية في مقابل العقلانية الكلاسيكية التي تقوم على مبدأ الاستقراء.

ومن هنا يمكننا القول أن الاستقراء، كمنهج للبحث العلمي في العلوم التجريبية، وكأساس للعقلانية العلمية الكلاسيكية، يستند على مجموعة من القواعد والمبادئ تعرف باسم خطوات المنهج الاستقرائي التي لابد أن يلتزم بها العالم للوصول إلى الحقيقة، وبهذا لا يعطي المنهج الفرصة لخلق وإبداع العقل الإنساني التي أعطتها العقلانية العلمية المعاصرة أهمية كبيرة، حيث تؤكد على دور العبقرية الخلاقة في خلق الفرضيات العلمية، وهى النظرة التي تخالف وتناقض بشكل جذري العقلانية الكلاسيكية التي ترى أن مصدر الفرضية العلمية هو الملاحظة والتجربة. وقد ساهم كارل بوبر ومن بعده بول فايرآبند في توضيح هذا الدور.

قلنا إن العقلانية العلمية المعاصرة شهدت في السنوات الأخيرة اهتزازًا

لعـرش المنهج التجريبي القائم على مجموعة من القواعد والأنسـاق والمعايير الثابتـة والمطلقة، ولعل من أعنف الهجمات التي شـنت مؤخرًا ضد محاولات البحـث العلمـي لصياغـات منطقيـة وقواعد كليـة وثابتة يفـترض فيها أنها ملزمة للعلماء أنفسـهم، ما قدمه بول فايرآبند في كتابه «ضد المنهج Against Method» أو مـا يطلق عليه نيوتن سـميث «ضد الرأي المقبـول.[1] والذي يتمعـن في هذا الكتاب سـيجد أن فايرآبند يقدم فيه نظـرات ثاقبة ومتميزة في فلسـفة العلم، جعلـت فايرآبند بحـق، خليقًا بأن يشـكل المرحلة الثالثة مـن مراحـل العقلانية العلمية المعـاصرة بعد المرحلة الحديثة الكلاسـيكية والمرحلـة المعاصرة ومرحلة ما بعد الحداثة، حيث يوضح أن ليس ثمة «منهج علمي» على الإطلاق، وأن العلم لا يمتاز بمناهجه ولا بنتائجه، ويجب انتزاعه مـن قواعده الثابتة والجامـدة التي وضعتها العقلانية العلمية الكلاسـيكية، والكفـاح مـن أجل خلق مجتمـع بـه «تعددية مـن التقاليد»، مـن بين هذه التقاليـد التـي يرغـب فايرآبنـد في رؤيتها، علـم التنجيم والسـحر والطب التقليدي والحكمة الشعبية والأسـاطير القديمة والأديان والأعراف وغيرها من الأنساق والممارسات المعرفية والاجتماعية المختلفة.

يبدأ فايرآبند حجته بالتسـاؤل الذي جعلـه محور عقلانيته وهو: هل من الممكـن وضع «منهج» محدد ومتماسـك بقواعد دقيقـة وناجحة إلى حد ما؟ وهـل هذا المنهج في حاجة لعون اسـتثنائي؟ أو بعبارة أخـرى، هل ثمة منهج علمي محدد بأطر وقواعد منهجية في العلم لا يمكن الحياد عنها؟[2]

(1) Newton Smith: The Rationality of Science. P.125.

(2) Feyerabend, P.: Against Method, 1984, P.20.

إن الإجابة التي نتلقاها من فايرآبند هي «النفي»، فليس ثمة منهج علمي في الأساس، ذلك لأن عالمنا الذي نريد أن نستكشفه غامض، لذا كان من الضروري إقامة اختياراتنا بحرية أكثر، وألا نكون مقيدين بمنهج محدد في تفسيراتنا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن القول بمنهج ثابت لا يتوافق مع الاتجاه الذي يبغي الصالح العام.[(1)]

وربما إذا أردنا أن نقف على الخطوط الرئيسية لعقلانية فايرآبند العلمية التي ينقد فيها «المنهج العلمي»، فإن هذا يجعلنا نلجأ إلى أكثر مؤلفات فايرآبند حداثة وهو وداعًا للعقل «Farewell To Reason»، حيث يذهب إلى القول بأنه على الرغم من وجود أنماط للنجاح في العلوم، إلا أنه لا يوجد منهج ثابت، ولا يمكن أن يكون ثمة منهج كلى... فالإنجازات التي تمت في مجال العلوم لا يمكن أن تعزى لوجود مبادئ عامة تغطي كل الحالات، فلا يوجد حقيقة كلية، ولا معايير محددة للمعرفة وللعقل.[(2)]

هذا القول من فايرآبند إنما يخالف آراء أصحاب العقلانية العلمية الكلاسيكية بشقيها العقلي والتجريبي معًا، فقد سلم أصحاب الاتجاه العقلي من أرسطو حتى ديكارت، بعقلانية المنهج العلمي، بمعنى أن المنهج العلمي، يقوم على مجموعة من المبادئ العقلية الثابتة التي يجب على الباحث أن يتبعها خلال البحث العلمي.[(3)] فقد رأى أرسطو، أن القياس هو المنهج الوحيد الذي نستطيع من خلاله أن نشيد العلم، وقد رأى «ديكارت» فيما يقول عثمان أمين.[(4)] أن

(1) Ibid, P.20.

(2) Feyerabend, P. Farewell to Reason. PP. 9 - 12.

(3) Newton Smith: The Rationality of Science, P.208.

(4) انظر: د. عثمان أمين. ديكارت. ص77 وما بعدها.

البحث في المنهج هو أهم المشكلات وأولاها بالعناية في مهمة الفيلسوف، حيث أن أول ما يلزم من أدوات التفلسف هو الشعور بضرورة «المنهج» ثم إيجاد ذلك المنهج بالعقل، ثم تطبيقه.

يقول ديكارت معرفًا «المنهج»: أعني بالمنهج، قواعد مؤكدة بسيطة إذا راعاها الإنسان مراعاة دقيقة كان في مأمن من أن يحسب صوابًا ما هو خطأ، واستطاع دون أن يستنفذ قواه في جهود ضائعة، بل بالعكس مع ازدياد علمه زيادة مطردة أن يصل بذهنه إلى اليقين من جميع ما يستطيع معرفته.»[1]

وقد حدد ديكارت في «المقال في المنهج» أربع قواعد أساسية تمثل منهجه هي:

1- **قاعدة البداهة:** «ألا أقبل شيء على أنه صادق ما لم تكن لدي معرفة واضحة بأنه كذلك».

2- **قاعدة التحليل والتقسيم:** «حيث أقسم كل مشكلة تناولتها إلى أكبر عدد ممكن من الأجزاء لكي نقدم أفضل حل لها».

3- **قاعدة الترتيب والتركيب:** «لكي أكون على ثقة من أنني لم أغفل شيئًا في الطريق الذي سلكناه من المعقد إلى البسيط يجب أن نعود فنسلك الطريق في الاتجاه المقابل، فنسير من البسيط إلى المعقد».

4- **قاعدة الإحصاء:** «حيث أقوم بإحصاءات تامة ومراجعات عامة في

(1) ديكارت: مقال عن المنهج، ترجمة محمود محمد الخضيري، مراجعة وتقديم د. محمد مصطفى حلمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ص190 وما بعدها.

كل الخطوات للتأكد من أني لم أحذف شيئًا له صلة بموضوع المشكلة المعروضة للبحث.»[1]

إلا أن مؤسس العقلانية الحديثة، فيما يقول فايرآبند، حين عزل «المقال في المنهج»، عن «المقال في العلم» تنكب طريق «العقلانية» نفسها، فالمنهج وقد تم عزله عن السياق الإجرائي للعلم باسم العقلانية التي تربطه بمجموعة ثابتة من الأفكار ووجهات النظر، يفقد بعد قليل قيمته العلمية نفسها، ويصبح متخلفاً بالنسبة للمناهج الجديدة التي تصاحب الاكتشافات العلمية المستمرة.[2]

أما بالنسبة للاتجاه التجريبي في تصور المنهج العلمي، فيمكن أن نرمز له بمؤسس العلم التجريبي الذي أرسى دعائم العقلانية العلمية الكلاسيكية على أسس ثابتة عندما وضع أسس «منهج البحث العلمي» الذي أراد به أن يكون طريقًا إذا سار عليه الباحث كان على ثقة من إصابته للحقيقة، أعني «فرانسيس بيكون» الذي تعتمد العقلانية عنده على المنهج الاستقرائي، حيث هو عبارة عن تخطيط لممارسة عملية المعرفة، حيث يبدأ في الشروع في التجارب الحسية وينتهي بالاستدلالات العقلية.[3] فقد جرى الباحثون في فلسفة العلم ومناهج البحث العلمي على تقسيم منهج بيكون لقسمين: إحداهما سلبي والآخر إيجابي.

---

(1) المرجع السابق، ص190 وما بعدها.

(2) نقلاً عن د. حسن عبد الحميد: دراسات في الإبستمولوجية، التفسير الإبستمولوجي لنشأة العلم. المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة 1992، ص231، وأيضًا:
Feyerabend, P. Realism Rationalism. P. 8.

(3) قيس هادى أحمد: نظرية العلم عند فرانسيس بيكون. دار الشئون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام - بغداد 1986، ص109.

أما القسم السلبي: فقد عرض فيه للأخطاء التي يتعرض لها الباحث، والأوهام التي تعوق العقل عن إدراك الحقيقة، وهي أوهام الجنس، وأوهام الكهف، وأوهام السوق، وأوهام المسرح. هذه الأوهام هي بحق أخصب جوانب عقلانية بيكون على الإطلاق بالمقارنة بجوانب فكره الأخرى.

أما الجانب الإيجابي: من منهجه فيتمثل في قوائمه الثلاث المشهورة التي وضعها للبحث العلمي وهي:

1- **قائمة الحضور**: أي محاولة معرفة علة الظاهرة والعلل الخفية غير المنظورة لها في كافة الأمثلة التي تكون فيها الظاهرة ماثلة.

2- **قائمة الغياب**: أي إزالة التأثيرات الذاتية في البحث.

3- **قائمة الدرجات أو المقارنات**: وفيها تدرج جميع الحالات التي تختلف فيها درجة الظاهرة المراد بحثها بين الشدة والخفوت.[1] إلا أن بيكون بمنهجه السلبي والإيجابي إنما يقدم لنا منهجًا ساكنًا يعمل على إعاقة البحث العلمي الذي يتطلب قدرًا كبيرًا من المرونة والإبداع والخلق للعقل الإنساني، إن كل الوقائع العامة التي توصل بيكون إلى إثباتها من خلال منهجه، قد أثبت العلم بطلانها بعد فترة وجيزة من تقدم التفكير التجريبي.

وإذا كان قول فايرآبند بنبذ «المنهج العلمي» يخالف آراء الفلاسفة العقلانيين في الاتجاهين الرئيسيين في الفلسفة، أعني: الاتجاه العقلي والاتجاه التجريبي، فإن قوله هذا إنما يقف أيضًا ضد المد الهائل من المؤلفات بشتى

(1) المرجع السابق: ص167.

الطـرق العقليـة والتجريبيـة في اسـتخلاص مجموعة من المبـادئ الإجرائية التي تصف سـير البحث في هذا الميدان أو ذاك من ميادين المعرفة، ولا شـك أن أصحـاب هذه المؤلفـات أنما يتغاضون عـن أن المنهج الذي يسـتخدم في أي علـم من العلوم إنمـا تحدده طبيعة المرحلـة التي يمر بها العلـم، بالإضافة إلى نـوع وطبيعة المشـكلة المطروحة للبحث. لذا يمكن القـول إن العقبات الإبسـتمولوجية التي تقف ضد كل تطـور في العلم، إنما هي في حقيقة الأمر عقبـات منهجية، وتجاوز هذه العقبات إنما يعني رفض هذه المنهجية وابتكار وسائل جديدة تمكننا من تجاوز تلك العقبات.(1)

ويعد فايرآبند من فلاسـفة العلـم المعاصرين الذين اهتموا بتاريخ العلم كي يدللوا على نبذ فكرة «المنهجية». ففكرة منهج ما ينطوي على مبادئ ثابتة وغـير متغيرة لقيادة عمل العلم تواجـه صعوبات جمة عندما نتقابل مع نتائج البحـث التاريخي، عندئذ نجد أنه ليس ثمة قاعـدة منفردة مقبولة رغم ثباتها وقبولها في العقلانية العلمية الكلاسـيكية، ويصبح جليًا أن الاختراقات التي تتم ضد فكرة منهج ثابت ليس حوادث مصادفة، وليسـت نتائج لمعرفة غير كافية، أو لعدم وعي يمكن تجنبه، بل هي على العكس، فإن هذه الاختراقات ضرورية جدًا للتقدم العلمي.(2)

ولا شـك أن المناقشـات الحديثة العهد في العقلانية العلمية المعاصرة إنما تـدرك تمامًـا أن الأحداث والتطـورات التي تمت كإبـداع المذهب الذري

---

(1) عالج د. حسن عبد الحميد، هذا الموضوع بشيء من التفصيل في كتابه: دراسات في الإبستمولوجيا. انظر ص236 وما بعدها.

(2) Feyerabend, P. Against Method, 1984, P.23.

القديم والثورة الكوبرنيقية، ونشأة المذهب الذري الحديث ونظرية الكم والانبثاق التدريجي للنظرية الموجية في الضوء. كل هذه الأحداث وغيرها الكثير، قد تمت، في رأى فايرآبند، لأن العلماء والمفكرين قد أخذوا على عاتقهم ألا يرتبطوا بقواعد منهجية ثابتة وجامدة ويقينية، أو لأنهم اخترقوها عن غير قصد. إن هذه الممارسة الحرة ليست حقيقة في تاريخ العلم فحسب، بل هي مقبولة وضرورية لنمو المعرفة، وبشكل أكثر تحديدًا، فإن أي قانون أو قاعدة معطاة يظن أنها أساسية وضرورية للعلم، فإن هناك دائمًا ظروفًا لا ينصح فيها باتباع هذه القاعدة أو تلك، أو هذا القانون أو ذاك، بل ينصح بتبني ما هو ضدها، يقول فايرآبند: «فقد ندافع عن فرضيات عينية أو عن فرضيات تتناقض مع النتائج التجريبية المقبولة بشكل واضح، أو فرضيات يكون مضمونها أقل من مضمون الفرضيات التجريبية الدقيقة أو الموجودة بالفعل، أو الفرضيات غير المتسقة مع نفسها وهكذا.»[1]

فهناك ظروف إذن، وهي تظهر تكرارًا، يكون من المتحسن فيها تبني ما هو ضد المنهج أو القانون عندما تفقد الحجة مظهرها المستقبلي وتصبح عائقًا للتقدم، فكل شخص تقريبًا يوافق الآن على أنه ما يبدو نتيجة للعقل، كسيادة اللغة ووجود عالم معقول وغني ومنظم، وكذلك القدرة المنطقية، هو نتيجة، إلى حد ما إلى عملية التلقين، ونتيجة لعملية النمو التي تتعامل مع قوة القانون الطبيعي.[2] ولهذا يرى فايرآبند أن الحوادث وليس الحجج العقلية هي التي تسبب لنا تبني معايير جديدة، فالتغيرات الفاجعة في البيئة

(1) Ibid, P.24.

(2) Ibid, P.24.

الطبيعية والحروب وانهيار الأنظمة الأخلاقية الشاملة، والثورات السياسية سـوف تعمل على تحويل أنماط ردود الفعل عند الشخص وتجعله يتبنى معايير جديدة ويستنتج العديد من الأشياء الأخرى حتى تلك التي لم تكشف بعد. ذلك لأن الرغبات والقوى والدعاية وتقنيات غسـيل المخ، تلعب دورًا كبيرًا في نمـو معارفنا ونمو العلم بالمقارنـة بالاعتماد المألوف الذي يعتمد على المنهج العلمي وقوانينه ومبادئه والذي كان سائدًا في العقلانية العلمية الكلاسيكية. وهذا يتضح أكثر عندما نضع في الاعتبار العلاقة بين الفكرة والفعل، ففكرة الحرية، على سـبيل المثال، سـتكون واضحة فقط عن طريق وسائل الأفعال نفسـها والتي هي بالفعل مبدعة للحريـة، فخلق شيء ما، وخلق فهمًا كاملًا للفكرة الصحيحة للشيء هو جزء من عملية لا تتجزأ ولا يمكن فصل عراها، كـما أن هذه العملية لا يمكن أن تكـون موجهة عن طريق أي برنامج، هذه العمليـة - فيـما يقـول فايرآبند، يتـم توجيهها عن طريق دافـع غامض، هو الانفعال. فالانتقال هو الذي يعطي نشأة للسلوك الخاص لأن يخلق الظروف والأفكار الضرورية لتحليل وتفسير العملية لجعلها عقلية. ويعطي فايرآبند مثالًا من تاريخ العلم يؤكد من خلاله موقفه السابق، حيث أن تطور وجهة النظر الكوبرنيقية من جاليليو وحتى القرن العشرين، لهو مثال أكيد لموقف فايرآبند الذي يريد توضيحه، ويمثل جاليليو، بالنسبة لفايرآبند أهم دليل من تاريخ العلم على عدم التقيد بمنهج محدد، لهذا يفرد له في كتابه «ضد المنهج» ما يقرب من ثمانية فصول، يتحدث فيها عن دور جاليليو في نبذ فكرة «المنهج العلمـي»، حيث اتجـه البحث مع جاليلـو في اتجاهات جديدة وتم تشـييد وسائل جديدة، كالتلسكوب وقانون القصور الذاتي، كل هذا جعل جاليليو يهتـدي إلى الطريق الصحيح، فمطاردته المتواصلـة للكوزمولوجيا المعاصرة

لـه جعلته أكثر المعبرين - من وجهة نظر فايرآبند، عن عدم التمسـك بمنهج محدد وثابت.[1]

إن العلم الحديث لم يتمكن من الوقوف على قدميه إلا عندما سار جاليليو في اتجـاه معاكس للاتجاه الأرسـطي العقيم، حيث تصـور جاليليو أن المنهج العلمي الصحيح يقوم على سيادة العقل على التجربة والاستعاضة عن التجربة بنـماذج رياضية، والقول بأولوية النظرية عـلى الواقعة، لهذا اعتبر جاليليو أن العمـود الفقري للتجربة العلمية هـو الرياضيات، لأن كتاب الطبيعة لا يتيـسر قراءته إلا من منظور ريـاضي، وأن ما يهدف إليه العلم، ليس وصف الطبيعة، بـل تحويلها إلى صيغ رياضية تتخذ صـورة قوانين رياضية طابعها الدقة واليقين، لهذا وجه جاليليو رسالة إلى أحد أصدقائه، يذهب فيها إلى أن الفيزياء هي بالضرورة علم رياضي ننظر فيه إلى الطبيعة نظرة هندسية ونقرأ فيها الواقع قراءة رياضية.[2] فالفيزياء هي فيزياء الفرض الرياضي نستنبط منها الحركة وقانون سـقوط الأجسـام اسـتنباطًا «تجريديًا» دون اسـتعمال مفهـوم القوة الأرسـطية، ودون اللجوء إلى الخبرة والتجريب على الأجسـام الواقعية والتجارب التي قام بها جاليليو والتي تؤيد هذه الفرضيات، إنما هي تجارب فكر. والسؤال الآن، لماذا جاليليو دون غيره من العلماء الذي استرشد به فايرآبند وأعاره مثل هذا الاهتمام الكبير ليدلل على ما ذهب إليه؟

نقول إن استشـهاد فايرآبند بجاليليو راجع إلى أن هذا الأخير كان يخطو خارج التيار السـائد في عصره، وتجاوز الأفكار المقبولة والسائدة في عصره،

---

(1) Ibid, P.26.

(2) سالم يفوت: «فلسفة العلم والعقلانية المعاصرة»، ص144.

فقد وقف ضد العقل المعاصر والخبرة المعاصرة له، وذلك بالدفاع عن النسق الكوبرنيقي وانتهاكاته المستمرة للميثودولوجيات التكذيبية لهذا النسق. إن افتراض كوبرنيقوس أن الأرض تتحرك قد فجر مشكلات ديناميكية جادة، والتي سوف يتجنبها جاليليو في الطريق المعاكس، كما يعتقد فايرآبند، فإن الصورة الكوبرنيقية ما كانت لتتخذ هذه المكانة في تاريخ العلم، وما كانت لتحقق هذه الخطوة العظيمة تجاه تقدم العلم إلى الأمام.

لقد اعتقد جاليليو في كتاباته المبكرة أن النظامين الكونيين: النظام البطلمي والنظام الكوبرنيقي كلاهما كاذب، إلا أنه بفضل ملاحظاته المدهشة التي قام بها عن طريق تلسكوبه عندما وجهه إلى السماء، ظهر الفرق الواضح بين الملاحظة بالعين المجردة والملاحظة بالتلسكوب التي أظهرت أن هناك انحرافات وتغيرات في حجم الكواكب الظاهرة والتي تتوافق مع النظرة الكوبرنيقية، هذا التوافق كان يدل على صحة النظرية الكوبرنيقية وصدق تلسكوب جاليليو، بالإضافة إلى إعطاء جاليليو أهمية كبيرة للفرضيات المساعدة عندما رأى أن تفسير حركة الأرض في حاجة لديناميكا جديدة، حيث أن تجربة البرج تتعارض مع حركة الأرض إذا تم تفسيرها وفق الديناميكا القديمة، لهذا صاغ جاليليو فرضًا مساعدًا هو «قانون القصور الذاتي» مع دوران الأرض. يقول فايرآبند: «لقد استبدل جاليليو التفسيرات القديمة لحركة الأرض بتفسيرات طبيعية جديدة، هذه التفسيرات توصف بأنها فرضيات مساعدة، وقد بزغت الخبرة الجديدة من هذه الزاوية. لقد تم الدفاع ضد التفنيدات الكوبرنيقية عن طريق افتراضات جاليليو والفرضيات المساعدة التي كانت كافية وواضحة وبسيطة لكي تصف اتجاه البحث المستقبلي.»[1]

(1) Feyerabend, P.: Against Method, 1984, P.99.

ولكن يجدر بنا أن نطرح على فايرآبند هذا السؤال: هل كان جاليليو يحمي النظرية الكوبرنيقية بالفرضيات المساعدة؟ يناقش فايرآبند هذا السؤال من خلال الحجة المشهورة التي قدمها جاليليو وهى تجربة «البرج» حيث يشير «دوايت فان ديفات Dwight Van Devate» الأستاذ بقسم الفلسفة جامعة تينيس إلى أن فايرآبند قد قدم نظرة جديدة لتجربة البرج، حيث يشير إلى أن العلم التجريبي يعتمد على تصوير صحيح للإحساسات التي يطلق عليها التفسيرات الطبيعية، حيث أدرك جاليليو أن بعضاً من هذه التفسيرات ضروري لإمكان التجربة، وأن تقدم العلم يتطلب إعادة تفسيرات أخرى، لهذا يناقش فايرآبند اعتراضات جاليليو على التفسيرات الأرسطية لحركة الأرض ويستبدل بها تفسيرات طبيعية أخرى، ويرى أن جاليليو استخدم في ذلك المبدأ الميثودولوجى الثاني وهو مبدأ تجاهل الملاحظات غير الملائمة.[1] إن جاليليو قد أنقذ فرض حركة الأرض والنظرية الكوبرنيقية عن طريق تقديم فرض مساعد هو «قانون القصور الذاتي»، الذي ينص على: «إن كل جسم يظل على حالته من السكون أو الحركة المنتظمة ما لم تؤثر عليه قوة خارجية».

هذا الفرض المساعد أدى إلى تكوين لغة ملاحظة جديدة وعلى درجة عالية من التجريد، حيث أنها تتضمن فكرة نسبية كل حركة، يقول فايرآبند: «إن محاولة جاليليو كانت محاولة للاهتداء إلى تفنيد الخبرة، وذلك عن طريق ملاحظة جديدة تقول بنسبية الحركة، هذه اللغة، كما اعتقد جاليليو، هي التي ستحرك معاصريه لطريق المذهب الكوبرنيقي.»[2] بالإضافة إلى إقرار

(1) Dwight Van Devate: A new slant on the tower experiment. in: Beyond Reason. PP. 449 - 452.

(2) Feyerabend, P. Against Method. 1984, P.99.

جاليليو بنماذج متنافسة للحركة مثل حركة الأشياء في القوارب والمركبات الكبيرة والأنساق المتحركة الأخرى، ويستشهد فايرآبند بحوار بين سالفياتي وسيمبليسيو حول هذا الموضوع:

سالفياتي: والآن، فكروا في أنكم تركبون فوق ظهر سفينة، وأنكم قد وجهتم عيونكم نحو قمة شراعها، هل تعتقدون في هذه الحالة أنه سيتحتم عليكم تحريك عيونكم حتى لا تختفي هذه القمة من أمامكم، بينما السفينة تتحرك بسرعة وكي تتابعوا حركتها؟

سيمبليسيو: إنني مقتنع أنني سوف لا أحتاج حتى لتغيير اتجاه النظر، كذلك لو أنني صوبت بندقية على قمة الشراع، فإنني سوف لا أحتاج أي إجراء لتغيير موضعها، أيًا كانت حركة السفينة، من أجل تصحيح اتجاهها نحو الهدف.

سالفياتي: هذا يرجع إلى أن السفينة قد منحت الشراع حركته، ومنحتكم أنتم وعيونكم نفس الحركة، بحيث لم يعد محتمًا عليكم تحريك عيونكم كي تحافظوا على موضع قمة الشراع أمامكم، وبالتالي فهي تظهر لكم ساكنة دائمًا.[1]

إن جاليليو بالنسبة لفايرآبند أكبر مثال تاريخي لأهمية التحرر من القيود

(1) Ibid, P.83.

وأيضًا: انظر الترجمة العربية لكتاب جاليليو: «حوار حول النظامين الرئيسيين للكون، النظام البطليموسي، والنظام الكوبرنيقي» ترجمة أ.د. محمد أسعد عبد الرؤوف، تقديم أ.د. على حلمي موسى، سلسلة الألف كتاب الثاني. الجزء الثاني. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991، ص173 وما بعدها.

والمناهج التقليدية والرأي الشائع والمقبول، وذلك من خلال محاولة جاليليو للإشادة بنسق كوبرنيقوس، كما أنه يسترشد به كمثال من تاريخ العلم على الحجة المعاكسة التي يجعلها فايرآبند أساس عقلانيته حول المنهج العلمي كما سنرى، إن جاليليو قد نزع الفتيل عن أهمية الحجة المعاكسة ضد فكرة حركة الأرض. كما أنه كان بخلاف الاتجاه المألوف الذي يرفض توظيف العلماء للفرضيات المساعدة، هؤلاء الذين يعطون مضمونًا غير ملائم للتطور الحادث في العلم عن طريق تجنب الفرضيات المساعدة، مما يؤدى إلى إعاقة العلم في المستقبل، إن الفرضيات المساعدة تتيح لنا أن نبقى على قيد الحياة في هذا العالم المعقد، كما أنها تتيح لنا أن نكون أحرارًا. ونحن اليوم نرى أن جاليليو كان على الدرب الصحيح، فسعيه المتواصل لما كان يبدو لأول وهلة أنه كوزمولوجيا ساذجة قد خلق الآن الضرورة المادية للدفاع عنها ضد كل أولئك الذين سيتقبلون وجهة النظر إذا قيلت بطريقة محددة، والذين سيصدقونها فقط إذا كانت متضمنة العبارات السحرية التي تسمى بـ «تقارير الملاحظة»، وهذا ليس استثناء، فهو حالة طبيعية، فالنظريات تصبح واضحة ومقبولة فقط نتيجة لوجود أجزاء متنافرة قد تم استخدامها لفترة طويلة، لهذا فإن أي حافز لا مقبول وغير ذي معنى ولا منهجي يصبح وفقًا لهذا شرطًا ضروريًا لا سبيل إلى اجتنابه من أجل الوضوح والنجاح التجريبي.

ولكن بعد نقد فايرآبند للعقلانية العلمية الكلاسيكية التي تؤمن إيمانًا قاطعًا بفكرة وجود «منهج علمي» ثابت، واستشهاده بجاليليو، كمثال من تاريخ العلم على صحة ما يقول، ما هو البديل الذي قدمه فايرآبند لكي يحل محل المنهج العلمي بالمعنى السابق؟

إن الإجابة على مثل هذا السؤال كما عبرت عنه، العقلانية العلمية عند فايرآبند يتضح فيما أطلق عليه فايرآبند اسم: «التعددية المنهجية» التي تعد أساس عقلانيته العلمية.

التعددية المنهجية هو شعار العقلانية العلمية الجديدة

إن محاولة فايرآبند لبيان زيف المشروع العقلاني الكلاسيكي يستند بشكل كبير على هجومه على «المنهج» لهذا كانت العقلانية المستجدة في فلسفة العلم المعاصرة والتي يعتبر فايرآبند أكثر المعبرين عنها، تحاول أن تقدم مزيدًا من التحرر من كل المعايير الكلية والتقاليد الجامدة من أجل اكتشاف أسرار الطبيعة والإنسان معًا، إن أصحاب الفوضوية الإبستمولوجية قد نبذوا ما يسمى بقوانين العقل، وذلك لأنهم يقفون ضد أي نوع من التقيد ويطالبون بالحرية الفردية وعدم عرقلة الإنسان بقوانين وتعهدات من شأنها أن تعوق مسيرة التقدم العلمي، كما أنهم وقفوا ضد كل المعايير التي يفرضها العلماء والمناطقة في البحث كقوانين المنهج العلمي أو التي يعتقدون أنها قوانين علمية. لقد كتب وولف Wolff، وهو أستاذ راديكالي، بجامعة كولومبيا في كتابه «فقر المذهب الليبرالي» أن البحث يتطلب مزيدًا من الحرية في المناقشة، وأن تلك الأنواع من «اللا - حرية» التي يفرضها علينا العلماء كالمناهج الثابتة والمحددة مثلًا، لا تجد مكانًا في العقلانية العلمية المعاصرة، وتمثل عقبة في طريق العلم.

ولكن المبدأ الواحد والوحيد، من وجهة نظر فايرآبند، الذي يمكن الدفاع عنه تحت كل الظروف وكل مراحل التطور الإنساني هو: « كل شيء

جائــز» الذي يعبر عــن الميثودولوجية الفايرآبندية والتــي هي ميثودولوجية تعددية، كما أنه يعد الأســاس الذي تســتند عليه عقلانيــة فايرآبند العلمية. إن ميثودولوجيــا فايرآبند التعددية تقدم وجهــات نظر مختلفة، وتقدم بدائل لوجهات النظر المقبولة، وتعمل على مقارنة الأفكار بعضها ببعض والاستفادة من كل وجهات النظر حتى تلك التي تم نبذها في الماضي عن طريق منافسيها، يقــول فايرآبنــد: «إن العقلانيــة التي أنشــدها ليس في الوصــول إلى نظرية مثاليــة، إنها بالأحرى زيــادة محيط البدائل واســتخدام كل النظريات حتى تلك التي تراجعت منذ زمن بعيد وأصبحت في طي النسيان، لأنها ربما يكون بها عنصر يوتــوبي يفيد معارفنا.»[1] ولهذا فالعقلانيــة العلمية عند فايرآبند، ليست حلقات من سلسلة النظريات المتوافقة والتي تتجه إلى الصدق، وإنما هــي بالأحرى زيادة محيــط البدائل غير المتوافقة وربمــا البدائل غير القابلة للقياس.[2]

إن العــالم لابــد وأن يتبنى الميثودولوجيــا التعددية التي تســتخدم العديد من البدائل، هذه البدائل مصادرها كثيرة، فيمكن أن نأخذها من الأســاطير القديمــة أو من نظرية كوبرنيقوس أو النظريــة الذرية أو من قبائل الفودو Voodoo (ديــن زنجــي إفريقي الأصــل، منتشر بين زنوج هايتــي ويقوم في الدرجة الأولى على أســاس من الســحر والخرافة) أو الطــب الصيني القديم، فكل هذه المعارف ربما تفيد العقلانية التي ننشدها.

ويلعــب «النقد» دورًا بارزًا في الميثودولوجيــا التعددية عند فايرآبند. إن

(1) Feyerabend, P.: Reply to Criticism, P.107.

(2) Feyerabend, P.: Against Method, 1984, P.30

أهمية بول فايرآبند في فلسفة العلم تكمن في الطابع النقدي الذي وجهه للعقل والعلـم الغربيين، حيث يعني النقد عدم قبول الظواهر والعمليات والقوانين التي تحيط بنا ببسـاطة، دون نقدها ومناقشتها جيدا ومحاولة تغييرها.[1] لهذا كان « النقد « يمثل المحور الأول والأساسي من محاور السلسلة التي اقتراحها بول فايرآبند للوصول - كما يدعي- للواقعية الحقة، حيث وضع سلسلة يتقدم من خلالها العلم والمعارف الأخرى وهي:

النقد ⟵ الإنتاج الدائم للنظريات العلمية (الوفرة) ⟵ الواقعية.

فالنقـد يعـد بدايـة تقديم تعدديـة من النظريـات والأنسـاق الفكرية المختلفة، فنحن لا نعمل وفق نظرية فردية أو نسـق فكري واحد، بل هناك تعدديـة نظرية نصـل من خلالهـا إلى الواقعية التي تعني الاسـتفادة من كل وجهات النظر حتى تلك التي تم تنحيتها ونبذها عن طريق منافسـيها، لهذا كانـت الواقعية، عند بول فايرآبند، لا تعني سلسـلة من النظريات المتوافقة والمتجهة إلى الصدق، وإنما هي بالأحرى زيادة محيط البدائل غير المتوافقة، وربما البدائل غير القابلة للقياس.[2]

وانطلاقـا من المعنى الإجـرائي الذي يسـتخدم به بول فايرآبنـد النقد في فلسفته كشف عن أزمة الثقافة الغربية. فقد وجد بول فايرآبند أن ثمة منطقًا يسـيطر على مجمل التفكير العلمي، هذا المنطق فرض سـلطانه وسيطرته على العقل ذاته، بحيث أصبح أداة للسـيطرة على الشعوب والأفراد الأخرى باسم

(1) Feyerabend .P. Realism, Rationalism and scientific method. Philosophical papers. Vol. l. P. 1.

(2) Feyerabend. P. Against method. p.30.

«العقلانية». هذا المنطق يكمن في تمركز المشروع الغربي الثقافي والحضاري على العلم الغربي وتصوره أن العلم الغربي، هو وحده دون غيره، القادر على اكتشاف الطبيعة والسيطرة عليها وفك طلاسمها، وأنه المقيم الواحد والوحيد للحضارات والمعارف الأخرى غير الغربية، لهذا كانت الدعوة إلى النظر في تاريخ العقل العلمي، من قبل بول فايرآبند دعوة ضرورية لمراجعة مفاهيم العقل والعقلانية والموضوعية العلمية وغيرها من المفاهيم التي سيطرت على مجمل تاريخ الفكر الإنساني، والقضاء على التصور التسلطي للعلم الغربي، والاستعاضة عنه بتصور آخر وهو وضع الثقافات والعلوم والمعارف غير الغربية في الاعتبار. لهذا كان بول فايرآبند يعد من المفكرين القلائل الذين دعوا إلى ضرورة التعامل مع الشعوب غير الغربية بمزيد من الاحترام، وذلك لأنه يرى أن إسهامات الثقافات غير الغربية تمثل صرحاً معرفيا وثقافيا لا يمكن إغفاله بأي حال من الأحول، وأن عرقلة هذه الإسهامات ناتجة عن أن الثقافات الغربية ذاتها تسعى إلى تهميش كل ما هو غير غربي.[1]

وقد بلغت الرؤية النقدية عند بول فايرآبند ذروتها عندما تناول دور العلم في المجتمع، حيث يرى أن كثيراً من المفكرين والأدباء قد أخطئوا دور العلم الحقيقي الذي ينحصر في تحرير الفرد من كل الأيدولوجيات المغرضة بما فيها العلم ذاته، فقد عاب بول فايرآبند على كروبوتكين Kropotkin الفيلسوف الروسي الفوضوي ما ذهب إليه من ضرورة هدم المؤسسات وصور الاعتقاد التقليدية، واستثناء العلم من ذلك الهدم، ونقد بول فايرآبند أيضا الكاتب المسرحي الذائع الصيت هنري إبسن Ibsen. H

(1) Deloria. V. Perceptions and maturity: Reflections on Feyerabend's point of view. In (ed) Maneuver. G. Beyond Reason p. 389

الـذي انتقـد الأيديولوجيا البرجوازية السـائدة في القرن التاسـع عشر بكل أشـكالها، إلا أنه يترك العلم بغير مساس، وقد وجه بول فاير آبند نقده لكلود ليفي شتراوس Strauss.l الذي جعلنا نفطن إلى أن الفكر الغربي لا يعتبر قمة الإنجـاز البـشرى الوحيد، كما كان يعتقد من قبل، إلا أنه يسـتثني العلم من انتسابه للأيديولوجيات.[1]

لقد حاول فاير آبند أن يدافع في فلسفته عن المجتمع ضد كل الأيديولوجيات المغرضة بما فيها العلم ذاته، فتعرض للتوظيف الأيديولوجي داخل المؤسسات التعليميـة، حيـث يذهـب إلى أن المـدارس الغربية تقوم بتدريـس الحقائق العلمية دون محاولة إيقـاظ القدرة النقدية لدى التلاميذ لكي يكونوا قادرين على رؤية الأشـياء من المنظور النقدي، والأمر لا يختلف كثيرا في الجامعات حيـث يتم تلقين الطـلاب تلك الحقائق العلمية دون أيـة رؤية نقدية.[2] إن العلـم ليس كتابًا مغلقا لا يمكن فك طلاسـمه إلا بعد سـنوات من التدريب والتمرس، بل هو نظام عقلي يمكن أن ينتقده أي شخص معني بأمر العلم، وأن الصعوبة المزعومة للعلم ترجع إلى الحملة الأيديولوجية المنظمة التي يشـنها العديد من العلماء الغربيين لإدخال الرعب في نفوسنا.[3]

لهـذا اتجهت الحضـارة الغربية تحـاول توظيف العلم توظيفـاَ أيديولوجيا وجعل العلـم الغربي مقياس التفـوق والعلمية، وأصبحـت العقلانية العلمية بدورهـا، تعني محق الاختلافـات والتغييرات وكل أشـكال التجديد والبدائل

(1) Feyerabend. P. How to Defend society against science in. (ed) Hacking .I. Scientific Revolution. Oxford University .Press. 1989. P .156.

(2) Ibid. pp. 157. 158.

(3) Ibid. pp. 162 - 163

المطروحة وأشكال المعرفة غير الغربية ،وهو ما يسمى بالأيديولوجيا التي هي شكل مباشر للتفكير بواسطة نموذج ما، فلا يمكن للجماعات أن تمارس التفكير إلا عبر الأيديولوجيا لأنها تقدم حلول جاهزة سريعة متفقة مع المعتقدات الجمعية، إذ تميل الجماعة إلى تصديق ما يتفق مع معتقداتها، أي ماله جواب جاهز في الأيديولوجيا السائدة، عندئذ تغلق دائرة المعرفة وتصبح الجماعة أسيرة نموذجها الأيديولوجي، وبالتالي تصبح الأيديولوجيا أوضح صيغة لفعالية السيطرة، ومن ناحية أخرى، فإن النسق المعرفي للنموذج الأيديولوجي لا يكتفي بفرض دعواه ،بل ينفي كل ما عداها من الحقائق، إنه يؤكد نفسه أصلا بنفي كل ما عداه، لذلك فإن استبداده المطلق هذا لا ينكر مقولة التغيير فحسب، لكنه ينكر أساسا، احتمال كون العالم أو شيء من أشيائه قابلاً للتغيير.[1] لهذا كان ولا يزال ثمة اعتقاد راسخ بأن العلم غربي المنشأ والتطور. إلا أن الأبحاث المستجدة في فلسفة العلم المعاصر واهتمامها بتاريخ العلم، قضت على وضعية العلم الغربي وعملت على فصل الأيديولوجيا التي تعمل على التحريف والاختلاف والتزييف من أجل أهداف سياسية.

ولا يخفى على أحد أن ثمة فكرة عن العلم تتمحور حول غربيته المطلقة والنظرة المركزية الأوربية في مناخ تسوده القوى العالمية الغربية على الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية، هذه النظرة للعلم تكرس حتما تقدير الغرب المفرط لذاته واحتقاره لغيره وللحضارات الأخرى غير الغربية، ولا يساعد على تتبع الحقيقة العلمية في تطورها وتغيرها وتبدلها.

(1) مطاع صفدي. نقد العقل الغربي: الحداثة وما بعد الحداثة: مركز الإنماء القومي. بيروت 1990 ص 45.

مـن هذا المنطلـق أنتقد بـول فايرآبند العلـم الغربي بوصفـه الأيدلوجيا المسـيطرة على مجمـل المشروع الثقافي الغربي، يقول بول فايرآبند: « لا شـك أن العلـم الغربي قـد لوث معظم العالم بمـرض معد، حيث أخـذ العديد من الشـعوب منتجاته المعرفية والمادية بوصفها صحيحة وحتمية، ولكن السؤال هـل كانت هذه السـيادة للعلم الغربي نتيجة لحجة كـما يرى المدافعون عن العلـم الغـربي؟ وهل هناك خطـوة للتقدم عن طريق الأسـباب التي تتوافق مع مبـادئ العقلانية الغربية. هل هذا التلوث الـذي أحدثه العلم الغربي قد أدخل تحسـينات على حياة هؤلاء الذين يؤمنون به؟ إن الإجابة لدى بالنفي، فالحضـارة الغربية قد تم فرضهـا بالقوة وليس عن طريق حجة تبين صدقها، لقد سادت لأن أسلحتها كانت أفضل.[1]

يوضـح فايرآبند لنا عدة نقـاط هامة بعد جولته النقدية داخل الأسـوار الحديديـة التـي تحيط العلـم والمعرفة العلميـة الغربية، هـذه النقاط يمكن إجمالها كالآتي:

أولا: أن العلم مجرد تقليد tradition كغيره من التقاليد الأخرى المتنافسة، وبالتالي لا يمكن للعلم أن يكون حكمًا على التقاليد والمعارف الأخرى. وأن المجتمع الحر لا يمكن أن يتأسـس أو تقوم له قائمة عن طريق عقلانية علمية واحـدة، أو تقليد للبحـث واحد، أو منهج علمـي أو نظرية علمية واحدة، بل يتأسـس عـلى تعدديـة التقاليد وروح التعـاون على مسـتوى الحضارات والمعـارف والأمم.[2] لهذا كان المجتمـع الحر الذي يدافع عنه بول فايرآبند،

(1) Feyerabend. P. Farewell to Reason. P. 298.

(2) Feyerabend. P. Against method. P. 245.

ينبغي أن تتساوى بداخله التقاليد المعرفية المختلفة، وأن العقلانية العلمية تعد تقليدا ضمن العديد من التقاليد الأخرى أكثر من كونها معياراً نقيس به مدى عقلانية أي مشروع علمي آخر، أو كونها معيارًا موجهًا للتقاليد الأخرى.

ثانيًا: إن محاولة تفضيل العلم الغربي على أشكال المعرفة الأخرى يعد انتهاكًا لحقوق المعارف الأخرى غير العلمية وغير الغربية على السواء، فقد ذهب بول فايرآبند إلى أن المدافعين عن أفضلية العلم على شتى ضروب المعارف الأخرى يستندون على أساسين هما: منهج العلم الذي يجعل من العلم معرفة منظمة، ونتائج العلم التي تصل إلى مرتبة اليقين الذي لا يشوبه أي شك، هذه النتائج التي لا تدين لأي معارف أخرى أو فعاليات غير علمية بحجة أنها نتائج مستقلة بذاتها إلا أن هذين الأساسين سرعان ما ينهارا عندما نتعمق تاريخ العلم الذي يشهد أن فكرة وجود منهج علمي ما ينظم عملية اكتساب المعرفة العلمية الصحيحة، لا يوجد ما يبرره، خاصة أن هناك نظريات علمية كثيرة حققت تقدمًا في العلم لأنها تجاوزت وانتهكت المناهج العلمية الثابتة والجامدة في عصورها، وفضلا عن أنه لا يوجد نظرية علمية واحدة لا تدين حتى ولا بالقليل، لفعاليات و إجراءات غير علمية، فقد يستقي عالم ما البذور الأولى لأفكاره النظرية من الأسطورة أو الحكمة الشعبية أو الأعراف والممارسات الاجتماعية المختلفة.

ثالثا: أن الديمقراطية المنشودة داخل المجتمع الحر تتيح الفرصة لكل التقاليد المعرفية للتعبير عن نفسها، إلا أن المجتمع الغربي المعاصر لديه تقليد واحد هو العقلانية العلمية المؤسسة على منهج علمي واحد ونظرية علمية

واحدة، غربية من ألفهـا إلى يائها . مما أدى إلى تهديد الديمقراطية ذاتها، لهذا يدعو بول فايرآبند إلى عقلانية علمية للتبادل المفتوح، إذا جاز لنا اسـتخدام هـذا التعبير، هـذه العقلانية تسـمح لكل التقاليـد والثقافـات والعلوم غير الغربية للمشـاركة في التقدم العلمي الإنسـاني على السـواء، وترفض وصمة التخلف والرجعية التي علقت بجبين العلم والثقافة غير الغربية، لهذا رفض بـول فايرآبند فكـرة الوحدة الثقافية التي ينادي بها المـشروع الثقافي الغربي للسـيطرة والهيمنة على شـعوب الحضارات الأخرى، فتبـدو الثقافة الغربية ثقافـة كونية عالميـة، بالإضافة إلى كونهـا علمية وتقنية صالحـة لكل زمان ومكان، وهذا يعـني محق الاختلافات والتغيرات والبدائل وأشـكال المعرفة الأخرى المطروحة على الساحة المعرفية غير الغربية.

إن لسـان حال بول فايرآبنـد يقول، أن الدعوات المعاصرة التي تتشـدق بالعولمـة والكوكبية والعالمية، هي أفـكار أيديولوجية مغرضة تحاول تثبيت دعائـم ثقافـة ما وهيمنتهـا على السـاحة الفكريـة والثقافية العالمية باسـم العقلانيـة العلمية. لهذا انتقد بول فايرآبند العقل العلمي كما تجلى في الثقافة العلميـة الغربيـة من خـلال فلاسـفة العلم المعاصريـن، فقد انتقـد كارل بوبـر من خـلال عقلانيته العلميـة التكذيبية النقدية وانتقـد توماس كون مـن خلال عقلانيته العلمية المؤسسـاتية وفكرة النموذج الإرشـادي، وانتقد إمـري لاكاتوش من خلال عقلانيته العلمية الميثودولوجية أو برامج البحث العلمي.

فـأول خطـوة في الميثودولوجيا التعددية هـي نقد التصورات والأنسـاق المألوفـة والوقائع، وضرورة خلق نسـق تصوري جديد يتعـارض مع النتائج

الثابتة ويدحض المبادئ النظرية المقبولة. من هذا المنطلق النقدي وجه فايرآبند انتقاداته للعقلانية العلمية الكلاسيكية وللميثودولوجيات القائمة، فهو يشير إلى أن الميثودولوجيات القائمة في فلسفة العلم المعاصرة، لم يتوصل أي منها إلى حقيقة التقدم العلمي، ويؤكد أنه من العبث رد العلم إلى بعض القواعد الميثودولوجية البسيطة نظرًا لتعقد تاريخه. يقول فايرآبند: «إن الفكرة القائلة بأن العلم يمكنه وينبغي له أن ينتظم وفقًا لقواعد ثابتة وشمولية، هي في آن واحد فكرة طوباوية لأنها تتضمن تصورًا مفرط في البساطة حول استعدادات الإنسان أو قدراته، وحول الظروف التي تشجعها على النمو أو تسببه، وهي براقة خادعة من حيث أن محاولة فرض مثل تلك القواعد لا يخلو من جعل الزيادة في كفاءاتها المهنية لا يكون إلا على حساب إنسانيتنا، وعلاوة على ذلك، فإن فكرة كتلك مضرة بالعلم لأنها تهمل الشروط الفيزيائية والتاريخية المعقدة التي تؤثر تأثيرًا حقيقيًا في التغير العلمي، لأنها تجعل علمنا أقل قابلية للتكيف وأكثر دوجماطيقية. كل الميثودولوجيات لديها حدودها، والمبدأ الوحيد الذي يبقى ويحيا هو أن «كل شيء جائز.»[1]

فإذا قصدنا بميثودولوجيات العلم قواعد لتوجيه اختيارات وقرارات المشتغلين بالعلم فلا يسعنا إلا أن نتفق مع فايرآبند، يقول الآن شالمرز أن كل وضعية علمية واقعية هي وضعية معقدة، تنمو بكيفية غير قابلة للتوقع، ولذلك فإن من العبث أن نتمنى العثور على منهج يمكنه أن يدل العالم العقلاني في سياق معين فيما إذا كان عليه أن يتبنى النظرية (أ) برفضه للنظرية (ب) أو العكس، يتبنى النظرية التي تتطابق، من وجهة نظر استقرائية،

(1) Ibid, P.33.

تطابقًـا أفضل مع وقائـع أو ظواهر معترف بها ورفض النظرية غير المتوافقة مـع وقائـع متداولة بصورة عامـة، هاتان القاعدتان هما مـن القواعد التي لا تتوافـق واللحظات التي جرت العـادة بتحديدها وتعيينها على أنها اللحظات البارزة في تاريخ العلم.[1]

إن دعـوة فايرآبنـد ضـد المنهـج تدخل في معركـة ضـد الميثودولوجيات المفـروض فيها أنها تقدم قواعد العمل أو السـلوك للمشـتغلين بالعلم، وعلى هذا يجد فايرآبند في «إمري لاكاتوش» الرفيق المشارك له في الفوضوية، ذلك لأن العقلانيـة الميثودولوجية عند لاكاتوش لا تعطي قواعد للاختيار لصالح نظرية أو برنامج ما، إنما تقدم هذه العقلانية معايير تسـاعد المشتغلين بالعلم على تقييـم الوضعية التاريخية التي يتخذ ضمنهـا قراراته، ولكنها لا تتضمن القواعـد التـي تقول له مـا ينبغي فعلـه. لا ينبغي للعلماء، إذن، أن يسـجنوا أنفسـهم داخل قواعد يفرضها عليهم أحـد الميثودولوجيين، بهذا المعنى « كل شيء جائـز». ويطالبنا فايرآبند بأن نتخذ الحذر في تأويل شـعار « كل شيء جائـز» وذلـك لأن بعض النقـاد قد أسـاءوا فهمه، فهو يقول: «إن شـعاري « كل شيء جائـز» لاقى العديد مـن الانتقادات والهجوم. إنني لا أبحث عن نظريات جديدة للعلم، ولكني أتساءل ما إذا كان البحث عن النظريات أمر مقبـول ومشروع أم لا؟ فالمعرفـة، ومن ثم العقلانية، التـي نحتاجها في فهم وتقـدم العلوم لا تأتي من النظريات، وإنما من مشـاركة العديد من وجهات النظر العديدة.»[2]

---

(1) الآن شالمرز: نظريات العلم، ص135.

(2) Feyerabend, P.: Farewell to Reason, P. 283.

يوجه فايرآبند نفس الملاحظة لهؤلاء الذين قبلوا هذا الشعار دون أن يدركوا مغزاه، حيث أطلق عليهم «الفوضويون الكسالى» حيث قبلوا هذا الشعار وفسروه على أنه يجعل البحث بسيطًا وناجحًا. «فكل شيء جائز» إنما هو مبدأ يقف في وجه الفيلسوف العقلاني الذي يفضل دائمًا المبادئ. وأن غياب المعايير الموضوعية، التي تنشدها دائمًا العقلانية العلمية الكلاسيكية، لا يعني ضعف العمل، إنما يعني ضرورة فحص كل المقومات التي يعتبرها الفلاسفة والعلماء علمية.[1]

ونتيجة هذا الشعار الذي رفعه فايرآبند ليكون أساس عقلانيته وأساس ميثودولوجيته التعددية، فسر النقاد والباحثون عقلانيته تفسيرات مختلفة، فبعض النقاد يرى أن فايرآبند يتبنى في فلسفته المذهب المثالي، بمعنى أنه يحاول استبدال القواعد والمعايير المألوفة التي يقول بها المذهب المثالي، بقواعد ومعايير ثورية كالإنتاج الدائم للنظريات، والاستقراء المعاكس «وشعار كل شيء جائز» إلا أن فايرآبند يبتعد عن المذهب المثالي، فهو يقول موضحًا إساءة الفهم تلك: «إن مقصدي ليس في استبدال مجموعة من القواعد العامة بأخرى، بل مقصدي هو إقناع القارئ بأن كل الميثودولوجيات، حتى الواضح منها لديها حدودها. ومقصدي أيضًا أن أبين أن المذهب المثالي الذي يتناول مشكلات العقلانية العلمية، حيث يرى أن العقلانية العلمية تقوم على مجموعة من القواعد والمعايير الكلية، بالإضافة إلى تجنبه للفرضيات المساعدة، فليس حل المشكلات عن طريق تغيير المعايير، بل عن طريق أخذ مختلف وجهات نظر العقلانية في الاعتبار.»[2]

(1) Ibid, p. 284.

(2) Feyerabend, P. Against Method, 1992, P.248

هذا القول أدى ببعض النقاد إلى اعتبار فايرآبند ينتمي لمذهب الفوضوية الساذجة، وهذا يبتعد تمامًا عن مقصد فايرآبند. فالفوضوية الساذجة تقول بأن كل القواعد المطلقة والقواعد المتوافقة مع السياق لديها حدودها، وهذا يدل على أن كل القواعد والمعايير سيئة ويجب التخلص منها نهائيًا، إلا أن هذا القول لا ينطبق من بعيد أو قريب على عقلانية فايرآبند، فهؤلاء الذين يذهبون إلى هذا القول إنما يتغاضون عن الفقرات العديدة التي يبين فيها كيف أن الإجراءات قد ساعدت العديد من العلماء في أبحاثهم، مثل دراساتي، والحديث هنا لفايرآبند، عن جاليليو والحركة البراونية وفلسفة ما قبل سقراط. إنني لا أوضح فقط إخفاقات المعايير المألوفة، إنني أحاول أيضًا أن أبين بأنه ليست الإجراءات المألوفة ناجحة بالفعل، وأن كل القواعد لديها حدودها، وأن ليست ثمة عقلانية شاملة، كما لا أحاول أن أثبت أننا يجب أن نعمل دون قواعد ومعايير، بل لابد أن يكون هناك تعددية من الميثودولوجيات ووجهات النظر المتنافسة، بهذا سيكون لدينا عقلانية علمية تستطيع أن تعبر عن المرحلة الراهنة في العلم. إلا أن «جون لوس» يرى أن قول فايرآبند بأن الفكرة القائلة بأن العلم الذي يسير وفقًا لقواعد كلية وثابتة، هي فكرة لا واقعية وضارة بالعلم ذاته. وهو قول غير مبرهن عليه، بحيث التسليم بمعايير غير ثابتة يجعل العلم أقل تكيفًا وأكثر دوجماطيقية.[1]

ويذهب «فيرنر ديدريخ» إلى القول بأن فايرآبند في ظل نقده للميثودولوجيات المعيارية التي تقوم على مجموعة القواعد الثابتة، لم يقدم لنا أي مضمون وصفي لما نعتبره المعيار الفاصل للعلم، حيث أن الدعوة لمبدأ

(1) Loss. J.: Philosophy of Science and Historical Enquiry. Clarendon Press, Oxford, 1987.

«كل شيء جائز» تعني الانتهازية، وأن نقد فايرآبند المدعم بطريقة تاريخية لا ينتهي إلى شيء.[1]

إلا أن هذه الأقوال لا تدرك كنه عقلانية فايرآبند العلمية، إن فايرآبند لم يعارض كل الميثودولوجيات مفضلًا عليها الفوضوية العلمية، أو أنه بالأحرى، يفسر كل الميثودولوجيات بطريقة فوضوية، إن فايرآبند يلح على أن الفوضوية العلمية ليست ميثودولوجيا غريبة تقف ضد كل الميثودولوجيات القائمة على درجة عالية من التأييد. إن الفوضوية العلمية تعليق في لاهوت العلم لكل ميثودولوجيا يمكن تصورها، لهذا يمكننا القول إن العقلانية العلمية عند فايرآبند، والتي تلعب فيها التعددية الميثودولوجية دورًا بارزًا، لا تقف ضد العقلانيات العلمية سواء الكلاسيكية أو المعاصرة، إنما هي تعليق عليها، ومن هنا تنتفي دعوة وضع فايرآبند ضمن الاتجاه اللاعقلي في فلسفة العلم.

ومن جهة أخرى فإن فايرآبند يلفت الانتباه إلى استخدامه لكلمات مثل «التقدم» و«الترقي» و«التحسين» فهو يؤكد أنه لا يدعي معرفة خاصة عن ما هو الجيد وما هو الرديء في العلوم، أو يفرض هذه المعرفة على قرائه. فكل شخص يستطيع أن يقرأ كلمات فايرآبند بطريقته الخاصة ووفقًا للاتجاه الذي ينتمي إليه، يقول فايرآبند: «فقد يعني «التقدم» بالنسبة للفيلسوف التجريبي، الانتقال إلى نظرية تمده بالاختبارات التجريبية المباشرة لافتراضاته الأساسية، ويعتقد البعض أن نظرية الكوانتم هي نظرية من

(1) Werner Diederich: Obituary on the "Anarchist" Paul Feyerabend. in: Beyond Reason, PP. 213 - 224.

هذا النوع، أما «التقدم» بالنسبة للبعض الآخر فربما يعني الاتحاد والانسجام وربما حتى في حساب الكفاية التجريبية، وقد نظر لنظرية أينشتاين في النسبية العامة من هذا المنطلق. إن موضوعي هو أن «الفوضوية» تساعد على إنجاز التقدم في أي معنى من المعاني التي تهتم بالاختيار، حتى العلم الذي يقوم على القانون والنظام سوف يحقق نجاحًا فقط إذا سمح للحركات الفوضوية أن تأخذ مكانها.»[1]

لقد استفاض الحديث عن الفوضوية المعرفية عند فايرآبند، وعلاقتها بالمنهج العلمي وقوله بالتعددية الميثودولوجية كأساس من أسس العقلانية العلمية لديه، لهذا يمكن أن نخلص إلى أن العقلانية العلمية عند فايرآبند تؤكد على عدة أشياء:

أولًا: أن الأحداث والإجراءات والنتائج التي تؤسس العلوم ليست لها بنية مشتركة، ولا يوجد ثمة منهج للبحث العلمي، فالتطورات الملموسة في تاريخ العلم سواء القديمة أو حديثة العهد تشهد بأن فكرة وجود منهج ما ينطوي على مبادئ ثابتة وغير متغيرة لقيادة عمل العلم تواجه صعوبات جمة.

ثانيًا: أن تاريخ العلم يؤيد ما يذهب إليه **فايرآبند**، فتاريخ العلم ليس مجرد وقائع، بل هو تاريخ رحب مليئ بالأفكار وتفسيرات الوقائع وخلق المشكلات والتفسيرات المتنافسة، وكذلك الأخطاء تلعب دورًا بارزًا في تاريخ العلم، إن تاريخ العلم غني بمضمون يمكن للميثودولوجي الجيد أن يدركه، وهو أن تاريخ العلم مليئ بالأحداث والفروض الحدسية والتخمينات

(1) Feyerabend, P.: Against Method, P.27.

والأحداث المتجاورة بشكل غريب التي تمت كالثورة الكوبرنيقية وثورة النسبية والكوانتم، كل هذه الأحداث التاريخية وغيرها قد تمت لآن العلماء أخذوا على عاتقهم ألا يرتبطوا بقواعد منهجية ميثودولوجية ثابتة وجامدة ويقينية.

ثالثًا: أن النجاحات العلمية لا يمكن تفسيرها بطريقة بسيطة، فاختزال العلم إلى بعض القواعد الميثودولوجية البسيطة فيه ضرر كبير للعلم ذاته، ذلك لأن تلك القواعد الميثودولوجية البسيطة تهمل الشروط الفيزيائية والتاريخية التي تؤثر في التغير العلمي تأثيرًا حقيقيًا، فنحن لا نستطيع أن نقول إن بنية النواة الذرية قد وجدت لأن الناس قد فعلوا أ، ب، جـ .... حيث أن أ، ب، جـ تعد إجراءات من خلالها يستطيع أن يقفوا بشكل مستقل في استخدامها على الفيزياء النووية، بل لابد أن يدخل المضمون التاريخي الذي يتضمن الظروف الاجتماعية والأحداث، والخصوصيات الشخصية أو الفرضيات المسبقة، التي تعد أساس العقلانية عند فايرآبند، ذلك لأنها تؤثر على تصوراتنا للعالم ومن ثم تؤثر على نظرياتنا العلمية. لهذا كانت العقلانية العلمية عند فايرآبند تؤمن بضرورة التحرر من كل القيود حتى قيود المنهج العلمي ذاته، وقيود العقل العلمي أيضًا، كما أنها تؤكد على الطابع الإنساني، ومن هنا كانت العقلانية العلمية عند فايرآبند عقلانية نسبوية.